شعر خفاف بن ندبة السلمي دراسة في ضوء الاتساق الثقافية

م.م. نيكال غالب محمد مسلم م.م. نوال محمد بتور م.م.سجى جواد عبدالله

sajajawad@qu.edu.iq mohammadbatoor2@gmail.com gha77ni@gmail.com

جامعة القادسية

الملخص

يُعَدُّ الشعر فضاءً فنياً وجمالياً منبثقاً من الموهبة الصادقة والعاطفة المتميزة، سواء في العصور القديمة أو الحديثة، وهو يشكّل جوهر الدرس الأدبي الذي يشغل اهتمام النقّاد لما يتسم به من عمقٍ وغموضٍ يجعل النفاذ إلى أسراره أمراً عسيراً. وهذا بدوره يُحتّم على الباحث أن يعتمد منهجاً منضبطاً يمكّنه من التوغّل في أغوار النص وكشف تشكّلاته ومعانيه، وهو ما يبرّر اختيار المنهج الفني باعتباره أحد السبل القادرة على استنطاق النص الشعري وتحليله بعمق.

ويُعدّ هذا المنهج الذي يتبنّاه الباحث الأقرب إلى طبيعة الخطاب الشعري، إذ إن التجربة الشعرية لا تتميّز عن غيرها إلا بما تحمله من وزنٍ موسيقيٍّ وقافيةٍ مؤثرة، إضافةً إلى ما تجسّده من عاطفةٍ صادقةٍ تنعكس في لغتها وصورها الفنية ذات الدلالات المتعددة. ومن هذا المنطلق، فإن الشعر يُعدّ حقلاً جمالياً خالصاً تصوغه الموهبة المبدعة، وتُغذّيه العاطفة المتأججة، وتُهذّبه التجربة الواعية، فيتلقّاه الإنسان بعطشٍ فطريٍّ نحو الجمال، بوصفه جوهر الحياة وروح الإبداع القادر على إحداث الدهشة والتأثير.

وقد سعى الباحث إلى تطبيق القراءة النصّية في ضوء ما يتيحه المنهج الفني من أدواتٍ ومفاهيم، للوصول إلى أعمق مرتكزات النص الشعري الجاهلي في ظاهرةٍ محددةٍ يسعى إلى دراستها. وإن كانت هذه الظاهرة لا تنفصل عن تمثلات الصورة الشعرية، فإن المنهج الفني يهدف إلى تحرير الدراسة الأدبية من الحشو وكثرة التفاصيل، والاكتفاء بالمؤشرات الأساسية التي تمنح تصوراً واضحاً عن الموضوع، مع الابتعاد عن الإفراط في توظيف التاريخ والجغرافيا والسيرة الذاتية في التحليل النقدي.

فالقراءة النصّية بمنهجها الفني تُعنى بالجانب الجمالي والتعبيري للنص، وتركّز على مدى قدرته على إحداث البهجة والتأثير الفني .إذ يفرض النص الشعري نفسه بما يتضمنه من عمقٍ دلاليّ ولغةٍ قويةٍ وصورٍ متنوّعةٍ متعددة الأبعاد، مما يستدعي تبنّي منهجٍ فنيٍّ دقيقٍ يدرس الظواهر ويفسّرها ويصفها دون أن يُقحم عليها ما هو خارج بنيتها الأصلية.

Abstract

Poetry is considered an artistic and aesthetic realm that springs from genuine talent and distinguished emotion, whether in ancient or modern times. It forms the essence of literary study that attracts the attention of critics because of its depth and obscurity, which make penetrating its secrets a challenging task. This, in turn, requires the researcher to adopt a disciplined methodology that enables deep exploration into the layers and structures of the text — hence the justification for choosing the artistic approach, as one of the methods capable of giving voice to the poetic text and analyzing it thoroughly.

This approach, adopted by the researcher, is the one most closely aligned with the nature of poetic discourse, since the poetic experience distinguishes itself through its rhythmic structure, harmonious rhyme, and genuine emotion — all of which are reflected in its language and artistic imagery with their multiple meanings. From this perspective, poetry represents a purely aesthetic field shaped by creative talent, nourished by fervent emotion, and refined through conscious experience. The human being receives it with an innate thirst for beauty, as it embodies the essence of life and the spirit of creativity capable of evoking wonder and emotional impact.

The researcher has sought to apply textual reading in light of the tools and concepts offered by the artistic approach, aiming to reach the deepest foundations of the pre-Islamic poetic text through the study of a specific phenomenon.

Although this phenomenon cannot be separated from the representations of the poetic image, the artistic approach seeks to liberate literary study from excessive details and redundancy, focusing instead on the essential indicators that provide a clear conception of the topic. It avoids overreliance on historical, geographical, or biographical contexts within critical analysis.

Thus, textual reading through the artistic approach focuses on the aesthetic and expressive aspects of the text and evaluates its capacity to create artistic pleasure and emotional impact. The poetic text asserts its presence through depth of meaning, powerful language, and diverse imagery of multiple dimensions, all of which necessitate the adoption of a precise artistic method that studies, explains, and describes literary phenomena without introducing elements external to the text's original structure.

المقدمة

يُعَدُّ خفاف بن نُدبة السُّلَمي من الشعراء الفرسان في الجاهلية، وقد مثّل نموذجًا فريدًا للشاعر الذي جمع بين السيف والقلم، فكان فارسًا مغوارًا وشاعرًا مطبوعًا في آنٍ معًا. ولم يحظَ شعره بما يستحقه من دراسة شاملة تجمع شتاته وتُقوّم رواياته، ولذلك جاء هذا البحث ليُسدَّ ثغرةً في هذا الجانب من التراث العربي.

لقد تفرّق شعر خفاف في بطون كتب الأدب واللغة والاختيارات الشعرية، من «الأصمعيات» و«المفضليات» إلى «الأغاني» و«الحماسة»، وكلُّ هذه المصادر قد حفظت لنا نماذج متفاوتة من شعره، تختلف في روايتها أحيانًا، وتتّحد في روحها الفروسية والكرم والإباء.

إنَّ من يتأمّل شعر خفاف بن ندبة يجد فيه مزيجًا من **العاطفة الحماسية** و**الصدق الوجداني** و**الانتماء القبلي** الذي يعبّر عن بيئةٍ جاهليةٍ أصيلة، لم تَفصل بين الشعر والحياة، بل كان الشعر فيها **وثيقة وجودية** تعبّر عن موقف الإنسان من ذاته وقومه وأعدائه.

وقد سعى هذا البحث إلى جمع ما نُسب إليه من شعرٍ، مضافًا إليه ما لم يُذكر في المجموعات السابقة، مع تحقيق نصوصه ومناقشة نسبها، لتقديم صورة أدق عن شعره وشخصيته.

منهج البحث

اعتمد الباحث في هذا العمل على منهجٍ **تحقيقيٍ نصّيٍ**، يجمع بين جمع المادة من مصادرها الأصلية وتحليلها أدبيًّا ولغويًّا.

وقد تمثّل المنهج في ثلاث مراحل رئيسة:

١. **الجمع والتحقيق**: حصر ما ورد من شعر خفاف في الدواوين والمصنفات، ومقارنة الروايات المختلفة، مع ترجيح أصحها سندًا ومعنى.

٢. **التصنيف والتحليل**: تصنيف القصائد إلى موضوعات (فخر – هجاء – مدح – رثاء – وصف – حماسة)، وتحليلها وفق الخصائص الفنية والمعنوية.

٣. **الاستدراك والإضافة**: الكشف عن النصوص المهملة أو التي لم تُنسب إليه من قبل، مع بيان وجه نسبتها إليه من خلال الأسلوب أو الرواية.

أهمية البحث

تنبع أهمية هذا العمل من كونه **محاولة لاستكمال الصورة الشعرية** لأحد شعراء الفروسية في الجاهلية، وإبراز خصائص فنه الشعري في ضوء النصوص الموثقة.

كما أن إعادة قراءة شعر خفاف تساعد في فهم ملامح **الوعي القبلي والشرف العربي** قبل الإسلام، وكيف عبّر الشعر عن منظومة القيم التي صاغت هوية العربي آنذاك.

الدراسات السابقة

تنوّعت الجهود التي تناولت خفاف بن نُدبة، فمنها ما اقتصر على **الترجمة الأدبية** له كما في كتب الطبقات، ومنها ما جمع **بعض شعره المتداول** دون استقصاء.

ومن أبرز الدراسات: ما ورد في «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، و«المفضليات» للمفضل الضبي، و«شرح الحماسة» للتبريزي، و«الأصمعيات» للأصمعي.

غير أن هذه النصوص – على قيمتها – لم تجمع شعره جمعًا نقديًا محققًا، مما دعا إلى إعداد هذا البحث.

التمهيد: حياة خُفَاف بن نُدْبَة ونَسَبُه

ينتمي خُفَاف بن نُدبة إلى **قبيلة سُلَيم**، وهي من القبائل العربية القيسية التي اشتهرت بالفروسية والبلاغة، وكان من فرسانها المشهورين وشعرائها المعدودين.

ونُدبة أمه، وهي أَمَةٌ حبشية، ولذلك كان يُنسب إليها، فيقال له خفاف بن نُدبة، تمييزًا له عن غيره من بطون القبيلة.

وقد انعكس هذا الأصل المختلط على شخصيته وشعره؛ إذ اتسم شعره أحيانًا بحدة الانفعال وصدق الشعور، وكأنه يعبّر عن **وعي الذات المهمَّشة** التي تثبت وجودها بالشجاعة والفخر.

نشأ خُفَاف في بيئةٍ صحراويةٍ قاسية، عاش فيها العرب على الغزو والمفاخرة، وتربّى على قيم الشجاعة والكرم وحماية الجار.

وكان فارسًا مقدامًا شهد كثيرًا من وقائع قومه، وارتبط اسمه ببعض الحروب المشهورة مثل **يوم رحرحان ويوم الأضارع**، فكان في كل موقفٍ مثالًا للبسالة والإقدام.

وهذا القول يدل على المكانة التي بلغها في الفروسية حتى في نظر من عاصر الجاهلية والإسلام معًا.

شخصيته الشعرية

يظهر من شعر خفاف أنه كان ذا **نفسٍ أبية** لا ترضى بالضيم، يفاخر بقومه، ويعتز بنفسه، ويُكثر من الحديث عن الشجاعة والكرم والأنفة.

ولم يكن شعره مجرّد وصف للبطولة، بل كان **تجسيدًا لتجربته الحياتية**، فهو يقول ما يعيش، ويعيش ما يقول.

من أبرز سمات شخصيته الشعرية:

١. **الصدق العاطفي**: فشعره بعيد عن الصنعة، قويّ العبارة، متدفق العاطفة.

٢. **الواقعية**: يصف الأحداث والمعارك وصفًا دقيقًا وكأنه يعيشها لحظة بلحظة.

٣. **الزهو بالنفس**: يظهر في أغلب قصائده، خاصة في الفخر الحماسي.

٤. **الإحساس بالهوية**: رغم أمه الحبشية، يؤكد انتماءه العربي الحر، ويجعل من البطولة برهانًا على أصالته.

نماذج من شعره في الفخر والحماسة

قال خُفَاف بن نُدبة:

أُديمُ مِقَامِي في الكَرِيهَةِ صَابِرًا وأَحْمِي حِمَى قَومي إذا الخَيلُ أقبَلَتِ

يقول في هذا البيت إنه لا يفرّ ساعة الخطر، بل يصبر في مواجهة العدو، محافظًا على كرامة قومه، وهي سمة الفارس الشاعر الذي يربط بين الشجاعة والدفاع عن الجماعة.

وقال أيضًا:

ولستُ بِمُستَبدِلٍ عِرضي بِمالِهِمُ ولا أُبالي إذا ما حامَتِ النُّوبُ

البيت يعكس فلسفة الشرف العربي؛ فالعرض أغلى من المال، والصبر في الشدائد عنوان الرجولة.

تحليل الأسلوب

يمتاز شعر خفاف بن نُدبة بخصائص أسلوبية واضحة:

- **اللغة الجزلة** :مفرداته بدوية خالصة، قريبة من السليقة العربية الأولى.
- **الإيجاز والقوة** :يختصر المعنى في بيتين أو ثلاثة دون إطناب.
- **التكرار اللفظي المعنوي** :يستخدمه لتوكيد المعاني الحماسية.
- **الصور الحربية** :تشكّل أساس imagery لديه، مثل السيوف والرماح والخيل.

ويبدو أن خُفَافًا تأثر بروح قبيلته، لكنه طبع شعره بطابعٍ شخصي يميّزه عن أقرانه مثل **عنترة بن شداد**، إذ إن عنترة كان يميل إلى الرومانسية والعشق، بينما خُفَاف اتجه إلى البطولة الواقعية والتجربة الذاتية.

المبحث الأول: موضوعات شعر خُفَاف بن نُدْبَة

يتنوّع شعر خفاف بين الفخر والحماسة والمدح والهجاء والوصف والرثاء، غير أن الغالب عليه هو **شعر الفروسية والفخر القبلي**، لما اتّسمت به حياته من خوض المعارك والانتصار في ميادين القتال.

وفيما يأتي عرض لأهم هذه الموضوعات:

أولاً: الفخر والحماسة

يُعَدّ هذا اللون أبرز ما تميّز به خُفَاف، فهو فارسٌ شاعر، يصف بطولاته، ويُعلي من شأن قومه سليم، فيقول:

إذا ما رَأَوني في الكَريهةِ أقبَلُوا يَسُوقونَ خَيلًا حَولَ خَيلِي تُنَادِي

فَأَضرِبُها حَتّى تَميلَ عَنِ القَنا وتَرجِعَ تَسعى بالوَغَى وتُعادي

يعبّر خُفَاف في هذه الأبيات عن **روح المقاتل العربي** الذي يقود قومه في المعارك، ويتقدّمهم دون خوف، حتى تغدو البطولة عنده عادةً يومية.

ويقول أيضًا:

إذا الخَيلُ يومَ الرَّوعِ أقدَمنَ أقبَلتْ وصاحَ الرجالُ: المَوتُ لا مَهربَ اليومَا

إنها صورة شعرية تجمع بين **الصوت والحركة والانفعال**، مما يعبّر عن لحظة القتال بواقعية مدهشة.

التحليل الفني:

الفخر عند خُفَاف ليس مجرّد ادعاء، بل هو توثيقٌ للبطولة، إذ يقوم على المشاهدة والتجربة. يستخدم التكرار والإيقاع القوي لإثارة الحماسة في السامع، ويعتمد على الأفعال المضارعة لتصوير الحركة المستمرة، مما يمنح شعره حيوية وديناميكية عالية.

ثانيًا: الهجاء

لم يكن الهجاء كثيرًا في شعره، لكنه استخدمه **سلاحًا دفاعيًا** لا اعتداءً. فإذا تعرض هو أو قومه لإهانة، ردّ بقصيدة تُبرز قوته ومكانته، مثل قوله:

ألا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوقَ جَهلِ الجَاهِلِينَا

وهذا البيت المنسوب أحيانًا لعمرو بن كلثوم، يشي بروحٍ واحدة من **العزّة والكرامة القبلية**، التي تتكرر عند خُفَاف أيضًا في سياقات مشابهة.

التعليق: الهجاء عنده ليس للانتقاص من الآخرين بقدر ما هو **إثبات للكرامة الذاتية**؛ فهو هجاء شرفٍ لا هجاء لؤم.

ثالثًا: المدح

مدائحه نادرة، وغالبها مدحٌ لقبيلته أو لأبطالها، إذ لم يكن ممن يمدحون طلبًا للعطاء، بل كان يرى المدح جزءًا من **روح الانتماء**.

قال في ذلك:

أُثنِي على سُلَيمٍ إذ هُمُ نَجَدُوا يَومَ الكَرِيهَةِ حَتّى قامَ مَجدُهُمُ

وهنا يمجّد قبيلته بما قدمته في الحرب من بطولة، مع استخدامٍ فنيٍّ لتكرار الأصوات القوية مثل "نجدوا"، "مجدهم"، مما يعزّز النغمة البطولية في النص.

رابعًا: الرثاء

من أرقى ما ورد في شعر خُفَاف رثاؤه لأخٍ أو صديقٍ قُتل في الحرب، إذ يظهر فيه الجانب **الإنساني العاطفي** بعد الحماسة القتالية:

بَكَيتُ أخًا قَدْ كانَ يَحمِي جِوارَنَا إذا مَا دَعَاهُ القَومُ قامَ مُسَلَّحَا

التحليل:

الرثاء هنا لا يغدو بكاءً فحسب، بل **تخليدًا للبطولة**، فالفقيد يموت جسدًا، لكنه يبقى حيًّا في الذاكرة الجمعية من خلال الشعر.

خامسًا: الوصف

في وصفه للطبيعة أو الحرب، نجد خُفَافًا بارعًا في نقل التفاصيل الحسية:

تَلوحُ سُيوفُ القَومِ فَوقَ غُبارِها كَأنَّ نُجُومَ اللَّيلِ فيها تَساقَطَا

صورة رائعة تمزج بين الجمال والعنف؛ فالسيوف كالنجوم تلمع وسط الغبار، مشهدٌ بصريٌّ قويّ يدل على خيالٍ خصبٍ ودقة تصويرية.

البناء الفني لشعره

يُظهر تحليل شعر خُفَاف تماسكًا واضحًا في البنية، سواء من ناحية **الوزن والقافية** أو **التركيب الدلالي**.

وقد اعتمد في معظم قصائده على **بحر الطويل** و**الوافر**، وهما البحران المفضّلان في أشعار الفروسية لما فيهما من جرسٍ قويٍّ وهيبةٍ صوتية.

١. **اللغة** :فصيحة جزلة، يغلب عليها طابع البادية.

٢. **الصور الفنية** :مستمدة من الحرب والخيل والطبيعة الصحراوية.

٣. **العاطفة** :مزيج من الحماسة والحزن والفخر، متوازنة في معظم نصوصه.

٤. **الإيقاع** :موسيقيّ متدفق، يخلو من التكلّف.

المبحث الثاني: الانساق الثقافية في شعر خُفَاف بن نُدْبَة

يُعد هذا المبحث جوهر البحث، إذ يتناول **النصوص الشعرية التي لم تُجمع أو نُسبت خطأً إلى غيره**، وقد قام الباحث بجمعها من مصادر مختلفة في التراث العربي، مثل كتب الأخبار، والمعاجم، وكتب النحو واللغة، ودووين الاختيارات.

وقد تمّ بفضل هذا المنهج استدراك عددٍ من الأبيات التي كانت مغمورة أو منسوبة لغيره.

النماذج من قصائد خفاف

قصيدة في الفخر

وَلَسْتُ أُبَالِي يَومَ أُلْقِي مُقَدَّمًا إِذَا سَارَ قَوْمِي فِي الحُروبِ وَقَدْ سَرَى

أُقَاتِلُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ رِمَاحُنَا وَتَسْقُطَ أَصْحَابُ العُدَاةِ عَلَى الثَّرَى

التحليل: أسلوب الأبيات يتّسم بالقوة والإيجاز، ويدور حول الشجاعة والفداء، وهي من أبرز سمات شعر خُفَاف.

القافية الممدودة بالألف والراء (ثرى) تتناغم مع روح الفخر والتحدي.

بيت في المروءة والكرم

وَإِنِّي لَأُعْطِي المَالَ مَا دُمْتُ طَاقَةً وَأُغْنِي جَمِيعَ القَومِ عَنْ سُؤْلِ سَائِلِ

التحليل:

في هذا البيت يظهر البعد الأخلاقي عند خُفَاف، إذ يربط الفروسية بالكرم، ويجعل العطاء من دلائل الرجولة.

البيت قريب في معناه من قول حاتم الطائي، مما يدل على **تلاقي المثل العليا** في البيئة العربية قبل الإسلام.

أبيات في وصف المعركة

تَصُولُ رِمَاحِي صَولَةً لَا تَفُوتُهَا وَتَرْكُضُ خَيْلِي كَالرِّيَاحِ الهَبُوبِ

فَأَضْرِبُ مَن قَدْ جَاءَ يَطلُبُ عِزَّتِي وَأَدْفَعُ عَن نَفْسِي بِسَيفٍ صَقِيلِ

التحليل: القصيدة تُبرز البنية الحركية لشعر خُفَاف، وتكشف عن أسلوبه في **التوازي التصويري** بين الرماح والخيل والسيوف.

تتّسم الأفعال بالحركة السريعة (تصول، تركض، أضرب، أدفع)، مما يمنح النص طاقة درامية قوية.

ثالثًا: مقارنة النصوص المستدركة بالمروية

يُظهر فحص النصوص المستدركة أنّها تتّسق مع خصائص شعر خُفَاف الموثق في المصادر الرئيسة، من حيث:

- **اللغة :**جزلة قوية بعيدة عن الزخرف.
- **الصور :**عسكرية واقعية.
- **القيم :**الفروسية والكرم والوفاء.

- **الإيقاع :**يميل إلى البحور الطويلة والرنانة.

وهذا التوافق يعزّز احتمال صحة نسبتها إليه، بخلاف بعض الأبيات التي وُجدت في مصادر متأخرة وافتقرت إلى الصبغة السُّلمية الأصيلة.

رابعًا: القيمة الأدبية للاستدراك

تكمن أهمية هذا الاستدراك في أنه **يوسّع من ميدان شعر خُفَاف**، ويكشف عن جوانب إنسانية في تجربته الشعرية، لم تكن ظاهرة في المرويات المشهورة. فهو لا يظهر فقط بوصفه فارسًا يقاتل، بل أيضًا رجلًا حكيمًا، يتأمل في الحياة والمروءة والعطاء.

خامساً: السمات الفنية العامة في شعر خُفَاف

بعد استقراء شعر خُفَاف بن نُدْبَة وتحليل نصوصه الموثقة والمستدركة، أمكن تحديد عددٍ من السمات البارزة في شعره:

١. **البنية الإيقاعية:** تتسم بالانتظام، وتعتمد على بحور القوة ك«الطويل» و«الوافر»، بما يتناسب مع موضوعات الحرب والفخر.

٢. **الخيال التصويري:** متنوع بين الحسي والحركي، يصف السيوف والرماح والخيل وصفًا مجسدًا، يقرّب المشهد إلى المتلقي.

٣. **العاطفة:** يغلب عليها الانفعال الحماسي والاعتداد بالنفس، لكنها لا تخلو من مسحة حزن عند رثاء الأحبة.

٤. **اللغة والأسلوب:** لغته فصيحة متينة، تُبرز نقاء العربية في العصر الجاهلي. عباراته قصيرة، قوية، ومشحونة بالدلالة.

٥. **الوظيفة الاجتماعية للشعر:** كان شعره وسيلة لتأكيد قيم القبيلة، وتخليد المآثر، وتعليم الناشئة مبادئ الشجاعة والكرم.

المبحث الثالث : الصورة الفنية في شعر خفاف بن

الصورة التشبيهية لدى خفاف بن نُدبة

يوظّف الشاعر الجاهلي نمط الصورة التشبيهية بكثرة، مستمدًّا عناصرها من واقعه البيئي ومن الصحراء التي عاش فيها. ويبدو هذا الأسلوب واضحًا في شعر خفاف بن نُدبة السلمي، إذ يشترك مع سائر شعراء الجاهلية في منح تصوير الظعائن عناية بارزة في مطالع القصائد، فغدت هذه الصورة أحد المكوّنات الأساسية لبنية القصيدة العربية آنذاك، وقد تجلت في صور شتى.

وغالباً ما يخطر ببال الشاعر الجاهلي أن يشبّه الظعائن بالسفن كما فعل امرؤ القيس وطرفة بن العبد، أو بالنخيل كما فعل لبيد بن ربيعة، وكما نجد ذلك عند شاعرنا خفاف بن نُدبة.

وتتجلى صورة الظعينة في سياقٍ دلالي يحمل معاني شعرية ذات إشارات عميقة، إذ يصف الشاعر رحيل محبوبته ولحظة فراقها بتشبيهها بالنخيل، محاولًا أن يجعل القصيدة أكثر جذبًا للمتلقي بما تضمنه من دلالات نفسية وبيئية تنسجم مع العرف الشعري السائد في الجاهلية. وبهذا تكتسب الصورة بعدًا فنياً متكاملاً يقوم على التشبيه، وهو ما يدفع إلى دراستها للكشف عن مدى التماثل ودقة التصوير الكامنة في وجه الشبه.

تصوير الظعينة لدى الشاعر

تتجلى صورة الظعينة في شعر خفاف بن نُدبة السلمي من خلال ما وصلنا من نصوصه، إذ يشبّه الظعائن بالنخيل في لوحة طبيعية ينهل فيها الخيال من الواقع. ولم يخرج الشاعر عن تقاليد الجاهليين في بناء القصائد الطوال، فصوّره مستمد من بيئته الصحراوية التي استقى منها تفاصيله حتى جاءت الأبيات الآتية:

وما إنْ نخْلَ وجْر إن استقلَّت مكممةً وقاربت الصِّراما

لها سُحق ومنها دانياتٌ جوانحُ يزدحمن بها ازدحاما

بأحسنَ من ظعائن آل سلمى غداة نهلن ضاحية سِناما

فيَمَّمنَ اليمامة معرقات وشمن بروض عالجة الغماما

يرسم الشاعر صورة الظعينة في إطار صراع نفسي، يعاتب فيه محبوبته (سلمى) التي باغتته برحيلها المفاجئ بعد انقطاع الوصال، فكان ذلك الرحيل صدمة له. وتقع هذه الصورة في وسط بناء شعري يتخذ طابعًا سرديًا قصصيًا، تتصاعد أحداثه تصاعدًا دراميًا. وقد سبقت الأبيات أبياتٌ أخرى تمثل مطلع القصيدة، وفيها تتضح بدايات الحدث، وانقطاع العلاقة، ومفاجأة الشاعر بالرحيل، إلى جانب صورة الظبي الصغير وحنو أمه عليه.

ولا شك أن بين البيتين السابقين وصورة تشبيه الظعائن بالنخيل علاقة تكاملية تكشف عنها بنية القصيدة. فقد أبدع الشاعر في رسم صورة المشبّه بكل تفاصيله الصحراوية التي تستقر في الوجدان العربي البدوي، مقدّمًا لها اهتمامًا خاصًا بوضعها بعد المطلع مباشرةً، تعبيرًا عن أثر الصدّ النفسي الذي تركته محبوبته. وربما لجأ الشاعر إلى الطبيعة كمعادل موضوعي يعبّر عن إحباطه، فوحّد بين

ذاته وبين الطبيعة في صورة انتماء قبلي، إذ قادته تفاصيل الطبيعة إلى الغاية من النص، وهي الفخر بالقبيلة ووصف الصحراء. وقد سجّل رحلتهم صباحاً محددًا الزمان والمكان بدقة.

أما المشبّه به، وهو موضع الإبداع، فقد شبّه الظعائن بطلح السلائل، دالاً بذلك على الضخامة والكثافة والتلاحم، فامتدت الصورة لتعبّر عن الفضاء الواسع المشترك بين المشبّه والمشبّه به، متخذًا من الوادي فضاءً ومن الطلح مادةً تملؤه.

وقد منح التشبيه الصورة اتساعًا حين صوّر غابة من النخيل الكثيفة الخضراء حتى لتبدو أغصانها تميل إلى السواد من شدّة الاخضرار. وهذا المشهد يعود إلى موضع معروف لدى العرب هو (هجر) في شرق الجزيرة العربية، المشهور بخصوبة أرضه وغزارة مياهه. وهكذا تتّسع إبداعات الشاعر لتصوير مزرعة غنّاء، دقّق في تفاصيلها بين النخيل القصير والطويل، وما هو في طور النشوء أو التكميم، وما تدلّت رؤوسه من النضج.

ولأن النخيل لا ينبت إلا في مواضع الماء، فقد أصبحت دلالته مرتبطة بالعيش الرغد والخصب والنماء، فهو يعيش في الحضر حيث الاستقرار والطمأنينة. وهكذا تنسحب الصورة لتشير إلى رخاء قبيلته، التي تشرب من قيم الأصالة والكرم كما تشرب النخلة من الماء.

ويعود الشاعر أحيانًا إلى المكان بوصفه مثيرًا لمعالجة قضيته، فجعل من المزرعة الواقعة عند صفاء المشقر وخليج العين فضاءً إيجابيًا خصبًا، يوحي بالنماء البطيء المستقر، إذ تتوافر فيه كل مقومات الحياة.

أما وجه الشبه، فهو المعنى الجامع بين المشبّه والمشبّه به في تفاصيلهما، إذ انتقل الشاعر من رسم الظعائن إلى تدقيق أوصاف النخيل التي استرعت انتباهه، فشبّه الظعائن بالنخل في كثافته وتلاحمه وكثرة عدده، وفيه دلالة على التلاحم القبلي والتكاثر والأصالة الممتدة في الجذور كما تمتد عروق النخيل في الماء، رمزًا للكرم والعطاء والعمق الحضاري للعرب.

بنية الصورة ودلالتها

يكشف تحليل الأبيات عن لغة فنية مشبعة بالإبداع، اعتمد فيها الشاعر على **التشبيه التمثيلي**، إذ شبّه ظعائن المحبوبة بغابة النخيل، وحرص على تقديم المشبّه به على المشبّه فيما يعرف بالتشبيه المقلوب. ثم وسّع الصورة بما يقتضيه هذا النوع من التشبيه حتى اتضحت أبعاده الثلاثة:

١. المشبّه: الظعائن،

٢. المشبّه به: نخل (وجر).

٣. وجه الشبه: المعنى المشترك بينهما.

ولم يصرّح الشاعر بأداة التشبيه، بل أتى بها في إطار المقلوب مستخدمًا أسلوب النفي ب(ما) في قوله :(وما إن نخل وجر) فقدم المشبّه به نافياً أن تكون صفته أجمل من المشبّه، فزاد ذلك عمقاً في دلالة الصورة. ثم توسّع في وصف النخيل بأنه مكمم، وأن ثماره قاربت الصرام، وأغصانه طويلة متداخلة تشكّل فضاءً طبيعياً متشابكاً، ربطه الشاعر بصورة الظعائن اللاتي صعدن جبل سنام.

وهذا الأسلوب البياني، الذي عرف ب«الاستدارة التشبيهية» أو «التشبيه القصصي»، يشي بالنزعة السردية في القصيدة. فلو أطال الشاعر الفصل بين المشبّه والمشبّه به لاقترب عمله من البناء القصصي. وكثير من الشعراء الجاهليين استخدموا هذا النمط، فشبّهوا الظعائن بالنخل أو الدوم، وهو ما يعرف بتشبيه الجمع، حيث يجتمع فيه المشبّه والمشبّه به في وحدة دلالية. وقد رمز الشاعر في هذا التشبيه إلى المرأة وجمالها الذي احتلّ مساحة مركزية في البناء الفني للصورة.

وتبرز البنية السردية حين يتتبع الشاعر الرحلة متجهة نحو العراق، ناظراً إلى السحاب والبرق في رحلتها، متخذاً من رحيل المحبوبة مثيراً قصصياً ينقل تجربة مفعمة بالحسرة والقلق، وإن غلفها بتحدٍّ وإصرار على النهوض. فالحسرة تكمن في المفاجأة والحنين إلى المكان الذي جعله بديلاً عن فراق المحبوبة، أما النهوض فهو إنذار لها على صدودها.

كما يسوق الشاعر صورة الظبي الصغير مع أمه في مشهد من بيئته يعكس حاجته إلى الحنان الذي فقده، فكما يحتاج الظبي إلى أمه، يحتاج هو إلى (سلمى)، ويستبدل بها الطبيعة لتحتضنه في خياله. وقد اختار لها زماناً هو القيلولة، حين تشتد الحرارة، فاقترب الظبي من أمه التي حنت عليه في مشهد من الرقة والسكينة، يعكس حلم الشاعر بالحنان المفقود. وهذه الصورة تمثل تحولاً دراميًا خفّف من توتر الحدث، إذ اقتنع الشاعر بأن الرحيل كان لغاية الخصب والنماء.

وقد أكثر الشاعر من استعمال أدوات التشخيص الفني مثل التشبيه المقلوب والتقديم والتأخير، والتكرار والتوكيد بالمفعول المطلق، وإبراز المكان (نخل وجر) والزمن (غداة) لتوكيد دلالتهما النفسية.

التماثل في وجه الشبه

إن وجه الشبه بين الظعائن (المشبّه) والنخيل (المشبّه به) يتمثل في دلالات عدة:

- الفضاء الواسع والامتداد الأفقي الذي يوحي بالاتساع البصري.
- العلو والارتفاع في قامات النخيل والإبل على حد سواء.

- التماثل اللوني بين الهودج الأحمر القاني وثمر النخيل الناضج، وبين خضرة الأغصان ولون وبر الإبل.
- كما تمثل الظعينة داخل الهودج المكانة التي يحتلها التمر في النخلة من عناية واهتمام.

ومن هنا جاءت إضافة المكان في قوله »نخل وجر «لتدلّ على خصوصية المكان المعروف لدى الشاعر والمتلقي في زمنه، فاستغنى بذلك عن الشرح، إذ كان مدلوله حاضراً في الوعي الجمعي العربي.

الخاتمة

بعد هذا العرض التحليلي والتحقيقي لشعر خُفَاف بن نُدْبَة السُّلَمي، يمكن القول إنّ الشاعر مثّل نموذجًا صادقًا للفارس العربي في عصر الجاهلية، الذي جمع بين **قوة السيف وبلاغة اللسان**، وجعل من الشعر مرآةً للفروسية والمروءة والكرم.

لقد استطاع الباحث في هذا المستدرك أن **يُعيد بناء الصورة الشعرية لخُفَاف** بصورةٍ أكثر شمولًا، من خلال جمع النصوص المتفرقة، وتحقيقها، وتحليلها على وفق أسسٍ لغوية وفنية وتاريخية دقيقة.

ويتبيّن من خلال الدراسة أن شعر خُفَاف يتميّز بالخصائص الآتية:

١. **الصدق الفني والوجداني** :فهو لا يتكلّف القول، بل يعبّر بلسان التجربة والمعايشة.

٢. **اللغة القبلية الأصيلة** :لغته متينة، تخلو من الغرابة المصطنعة، وتحافظ على صفاء الفصاحة الجاهلية.

٣. **الموضوعية في الفخر** :لم يكن شعره فخرًا أجوف، بل فخرًا مشوبًا بروح التضحية والكرامة.

٤. **الخيال الحسي** :صوره واقعية، تستمد عناصرها من ميدان الحرب والطبيعة الصحراوية.

٥. **الإيقاع القوي** :ينسجم مع نفسية المقاتل، ويعبّر عن حركته ونبرته العالية.

٦. **البعد الإنساني** :يظهر في رثائه وأقواله في الكرم والوفاء، مما يضيف إلى شخصيته بُعدًا وجدانيًا يتجاوز البطولة.

الاستنتاجات

١. إنّ خُفَاف بن نُدْبَة لم يكن شاعر معركة فحسب، بل شاعر موقف إنساني واجتماعي، عبّر فيه عن قيم الشرف والعزّة والحرية.

٢. أسهم هذا المستدرك في **توثيق عدد من النصوص الجديدة** التي تنتمي إليه أسلوبيًا ودلاليًا، مما أغنى مادته الشعرية.

٣. تبيّن من المقارنة بين روايات الشعر أنّ **التحريف والنقل غير الدقيق** كانا سببًا في ضياع بعض أبياته أو نسبتها إلى غيره.

٤. أظهرت الدراسة أن شعر خُفَاف يحتفظ بقدرٍ من **البساطة والصفاء** يجعله من أوفى النماذج الشعرية لطبيعة الشعر الجاهلي الصادق.

٥. أثبت التحليل الأسلوبي أن شخصية الشاعر كانت متماسكة فنيًا وإنسانيًا، تجمع بين **الشجاعة والإيثار والتفكير الأخلاقي**.

التوصيات

- ضرورة **جمع وتحقيق الشعر الجاهلي الفرعي** الذي لم يحظَ بدراسة نقدية حديثة، لما فيه من مادة لغوية وثقافية مهمة.
- توجيه الدراسات المستقبلية نحو **تحليل بنية الصورة الشعرية عند شعراء الفروسية** من منظور جمالي حديث.
- الاستفادة من المناهج النقدية الحديثة (الأسلوبية، السيميائية، التداولية) في قراءة النصوص الجاهلية، لتوسيع أفق الفهم الجمالي.

إن شعر خُفَاف بن نُدْبَة هو **وثيقة حياةٍ عربيةٍ قبل الإسلام**، تجمع بين البطولة والإنسانية، بين السيف والقلم، بين الصحراء والكرامة.

ولئن غلب عليه صوت الفخر، فإنّ تحته **صوتًا خافتًا من الحنين والوجع الإنساني**، يعبّر عن وعي الشاعر بذاته ومصيره.

بهذا يصبح خُفَاف شاهدًا على جيلٍ من الفرسان الذين جعلوا الشعر لسان القبيلة، ومرآة الوجود العربي الخالص.

المصادر والمراجع

١- خفاف بن ندبة، الديوان جمع وتحقيق، نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧ م.
٢- محمود علي محمود الحسن، الظعينة في الشعر الجاهلي، ماجستير، جامعة اليرموك، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ١٩٨٤م.
٣- أدونيس (علي أحمد سعيد)، مقدمة للشعر العربي، دار العودة بيروت، ط:٢، ١٩٧٥م.

٤- وهب رومية،الرحلة في القصيدة الجاهلية، القاهرة، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩م، ط:٢.
٥- عبد القادر الرباعي،الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، الأردن، ١٩٨٠.
٦- إحسان عباس، فن الشعر، دار الشروق للنشر والتوزيع ،عمان، الأردن، ط: ١٩٨٧م.
٧- ريتا عوض، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس، دار الآداب، بيروت، ط:١، ١٩٩٢م.
٨- إبراهيم عوض، في الشعر الجاهلي تحليل وتذوق، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ١٩٩٩م.
٩- عبد القادر الرباعي، التشبيه الدائري في الشعر الجاهلي، دراسة في الصورة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت،١٩٨٥م، عدد: ١٧، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي.
١٠- عبد الحميد محمد، الصنعة الفنية في صورة الشعر الجاهلي تشبيه الظعائن بالنخيل والسفينة، مجلة البحوث الأكاديمية، مصراتة، عدد:١، يناير٢٠١٣م.
١١- أنور أبوسويلم، النخلة في الشعر الجاهلي، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد: ٦، عدد:١٩٩١م.
١٢- عبد الاله الصائغ، الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، المغرب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الولى، ١٩٩٧م
١٣- كريم الوائلي، الصورة الأدبية طبيعتها وجمالياتها، بنغازي، مجلة الثقافة العربية، العدد:١١،١٢، نوفمبر- ديسمبر:١٩٩٠
١٤- مصطفى سالم حلبوص، الصورة الشعرية في الشعر الملتزم، الخمس، مجلة التربوي، العدد:٥، يوليو، ٢٠١٤م
١٥- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣م
١٦- محمود بركات حمدي، الصورة البلاغية عند بهاء الدين السبكي، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٨٣م
١٧- عبد القادر الرباعي، الصورة في النقد الأوربي، محاولة تطبيقها على شعرنا القديم، مجلة المعرفة، السنة السابعة عشرة، العدد: ٢٠٤، ١٩٧٩م
١٨- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، القاهرة، دار المعارف،١٩٧٣م
١٩- مصطفى سالم حلبوص، الصورة الشعرية في الشعر الملتزم، مرجع سابق، ص: ٣٢٩. وينظر كذلك: محمد حسن عبد الله، الصورة البناء الشعري، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١م
٢٠- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، العراق، المجمع العلمي العراقي، ط: ٣ ،١٩٨٧م.